الأصالة والتجديد في المقال الأدبي

الدكتور شكري فيصل

مدخل :

عندما نتحدث عن المقـــال في التراث الأدبي نجد أننا نواجه سؤالين اثنين ينتصبان من أمامنا و كأنما يريدان أن يكون لهما في الدلالة على الطريق نصيب ، وفي تحديد جنبات الموضوع أثر .. أحدهمـا هو هذا السؤال الأول : ماذا تعني كلمة « مقال » في التراث العربي القديم ؟ والآخر : ماذا تعني هذه الكلمة عند المعاصرين ؟

ثم يكون السؤال الثـالث تتمة لهما في إطار الموضوع واستكمالا للحديث عنهما ، وهو : ماهي عناصر الأصالة وظواهر التجديد في المقال الأدبي ؟ وما هي العوامل التي قادت اليهـا ، والأحداث التي ساعدت عليها ؟ إن الأسئلة الثلاثة تتضام لتكون بأجوبتها ، وبما يتفرع عنها من قضايا ،وبما تثير من وجهات النظر الصورة الأكمل ـ فيما يبدو ـ في معالجة الموضوع .

القسم الأول : المقال في التراث القديم

١ ـ في التراث العربي القديم قبل الإسلام ، لم يكن هنالك هـــذا الذي نصطلح على أن نسميه بالمقال أو المقالة .. كانت الكلمة تعني القول .. فإذا ذكر النـابغة في معلقته وهو يعتذر إلى النعمان ويحاول أن يرد التهمـة التي ألصقت به وأن يقذف بها أعداءه :

مقالة أن قد قلت : سوف أناله وذلك من تلقـاء مثلك رائع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فإنما هو يعني القول .. وإذا قال الجاهلي أو العربي في صدر الإسلام : هذه مقالة صدق ، فإنما يريد ماتريده اليوم من تعبيرنا : هذا قول صدق أو حق .

ولا نقع في القرآن الكريم ، ولا في الحديث الشريف ، ولا فيما أبقت لنا هذه الفترة المبكرة الأولى على غير هذا الاستعمال لهذه اللفظة .

المقال ، إذن ـ أو المقالة ـ في صميم هذا الاستعمال العربي لها ـ كلام شفوي . . إنها ترتبط أشد ماترتبط بالنطق . . فإذا ذكرنا المقالة بعد ذلك في العصور التي ازدهرت فيها الثقافة العربية وفي هذه العصور الأخيرة التي نحياها أو نحيا أطرافاً منها ، وأنها تعني الكلام المكتوب ، أدركنا أضخم الفروق التي طرأت على استعمال هذا اللفظ بين القديم والجديد .

وليس في وسعنا ، في مجال ضيق هنا ، أن ننصرف إلى دراسة دقيقة لتطور اللفظة . . ولكننا نجد أنها كانت في حياتنا الثقافية الأولى ، بهذا المفهوم ، جزءاً أصيلاً من هذه الثقافة . . كانت ثقافتنا ، في أكثرها ، تعتمد على الرواية ، فكانت المقالة كلاماً منطوقاً . . وكانت ثقافتنا في كثرتها المطلقة شعراً ، أو ما يتصل بالشعر من هنا أو هناك ، فلم يكن لدينا إذن إلا أقل النثر ، وهو نثر شفوي على كل حال : خطب أحيانا ، ومنافرات ومفاخرات أحيانا أخرى .

٢ – ومع الإسلام يتغير كل شيء في النفس العربية عقيدة وتطلعاً ورسالة ، وفي الحياة العربية التقاءً وتوحداً داخل الجزيرة ، وانسياحاً وافتتاحاً في خارجها . . ويتنزل القرآن الكريم ، كتاب الدعوة ، كتابا معجزاً ، ليس من الشعر وإنما يحمل على الشعراء ، ويتنزل نثراً جديداً ، ويوشك أن يكون جديداً في كل شيء ؛ في لغته ومصطلحاته ، وفي تعابيره وتكوين جمله ، وفي أغراضه وأفكاره . . وتقوم الدولة الجديدة فإذا هي في حاجة إلى النثر لأن الدولة لاتقوم على الشعر ، ولأن الشعر بكل ماتراكم فيه من رموز ومعان ، بكل أشكاله وروحه ، لايمكن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أن يكون كفاء هذه الحياة الجديدة ولا دليلها .

هذا الانصراف عن الشعر إلى النثر كان اتجاهاً نحو ازدهار الخطابة أول الطريق ، وكان ازدهاراً للكتابة بعد ذلك على طول الطريق .

ومن ازدهار النثر كان هذا اللون من الأدب الذي نسميه الرسائل :

هل تكون الرسائل التي وصلتنا شيئاً يشبه المقال ؟ هل تشبه رسالة عمر في العهد الراشدي إلى أبي موسى الأشعري في القضاء أن تكون مقالاً ؟ ورسائل عبد الحميد بن يحيى وابن المقفع في العصر الأموي هل تصلح أن تكون شيئاً يماثل مانصطلح الآن على أنه المقال ؟

٣ ــ قد لا يكون منتجاً أن نتقرّى وجوه الشبه أو وجوه الخلاف بينهما .. أو أن نتبارى في اقتناص الملاحظات حول وصل مابين الرسالة بهذا المفهوم وبين المقالة في مفهومها المعاصر ، أو قطعه .. إنهما شكلان نثريان يلتقيان ويفترقان .. يحملان أوجهاً من الافتراق والتلاقي قد تتدانى أحيانا وقد تتباعد أحيانا .. رسالة عمر في القضاء ، موضوع معين تطرحه الحياة الجديدة فيكتب به عمر هذه الصفحات ويبعث بها إلى عامله أبي موسى أو إلى عماله .. ورسالة عبد الحميد إلى الكتاب موضوع يفرضه تنظيم الحياة الجديدة ، فيجمع عليه عبد الحميد آراءه وملاحظاته ثم يصوغه هذا الصوغ .. ورسالة عبد الحميد في الشطرنج ، إنما يثيرها أن الناس فتنوا بهذا البدع الجديد فتنة أوشكت أن تنصرف بهم عن أعمالهم فتضطر الدولة إلى أن تعالج هذا الموضوع وأن تكتب فيه .. ورسائل ابن المقفع في الأدب الصغير والأدب الكبير آراء وملاحظ وأفكار عنّت له من خلال المطالعة أو الترجمة أو ممارسة الحياة فكتب فيها .. ولكن رسالة عبد الحميد إلى أهله وهو منهزم مع مروان موقف ذاتي شخصي واجه الرجل فكتب فيه هذه الرسالة المؤثرة التي تنوس بين الأمل واليأس ، أحدهما يصرع صاحبه في كل كلمة أو جملة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إن هذه الرسائل قريبة من أن تكون مقالات . هي أحياناً مقالات مطولة توشك أن تكون دراسات لأفكار طارئة أو واقع جديد ، وهي أحياناً مقالات موجزة توشك أن تكون معالجة آنية لحدث يومي طارىء .. بعض هذه «الرسائل ـ المقالات» موضوعي، وبعضها ذاتي .. بعضها يغلب عليه أن تكون الفكرة وحدها هي التي تتحكم فيه ، وبعضها تتعاون فيه مقتضيات الفكرة وطرق الأداء لتصوغه على هذا النحو أو ذاك ...

ولكنها كلها ، أياً كان الحال ، أشياء مكتوبة ، ليست من بنات الشفاه، يلزمها ما يلزم الأشياء المكتوبة من أن تكون أثراً لشيئين : للتروية وللتحلية .. يتأنى فيها الكاتب : عقله وأداؤه على السواء .. إنها خطوة واسعة جداً على طريق المقالة المعاصرة : فيها الموضوع الذي يشغل الذهن ، أو الحادثة التي تملأ القلب .. وفيها التفكير في هذا الموضوع أو الانفعال بالحادثة بما يقود إليه الانفعال في الحياة الوجدانية والحياة العقلية .. وفيها الخلاص من ذلك إلى التعبير عنه بنوع من الأداء ـ يجمع أو يجب له أن يجمع ـ بين غنى الفكر ومتعة النفس وجمال العرض .. ويطول ذلك أو يقصر تبعاً لكثير من الظروف والمناسبات .

أكانت هذه بداية المقال المكتوب ؟ وهل ولد المقال العربي في أحضان هذه الرسالة ؟ أكان هو إياها ؟.

٤ ـ ومع حركة الثقافة الإسلامية وتقدمها تنمو « الرسالة ـ المقالة » من نحو .. وتنشأ المقالة غصناً جديداً في شجرة النثر من نحو آخر .

أ ـ أما نمو « الرسالة ـ المقالة » فنلاحظه في اتجاهين :

اتجاه « الرسالة ـ الفكرة » سواء كانت هذه الفكرة مجردة أو سياسية أو اجتماعية ، كما في رسائل الجاحظ .. وهي الرسالة التي تتخذ منطلقها وهدفها موضوعاً تعالجه أو فكرة تدرسها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

واتجـاه « الرسالة ـ الذات » وهي الرسـالة التي تنبع من حياتنا الذاتية ، والتي تكون في النثر العربي مجرى الرسائل الإخوانية .

ب ـ أما الغصن الجديد الذي نشأ يحمل اسم المقالة بوضوح فذلك هو هذه الأشياء التي كان يكتبها أصحاب المذاهب المختلفة ، يعرضون آراءهم ، ويظهرون دعوتهم ، ويتعرضون فيها إلى خصومهم بشيء من النقص أو بشيء من التزييف . إن في ثقافتنا الإسلامية أمثلة كثيرة لهذه « المقالات » : مقالات الأشعريين ، ومقالات المعتزلة و . . .

والمقالة هنا ، في هذا الشكل الجديد الذي تتلبسه ، توشك أن تكون قاصرة على الآراء والمذاهب والفرق ، أعني على النطـاق الفكري البحت الذي يتصل بالعقائد : عرضها ، والدفاع عنهـا ، والمحاجة في سبيلها . . . ولكنها تدل على شيء جديد آخر ذلك هو الذيوع أو القصد إلى الذيوع . . .

من قبلُ ، لم تكن **الرسالة** الموضوعية أو الذاتية تضع الذيوعَ العريض الذي يتناول الكتلة الكبرى من الناس ويتصل بالجماهير ، هدفاً رئيسياً لها ـ باستثناء رسـائل الدولة التي كانت تقصد بها الى عامة الناس ـ ولكن **المقالة** التي تتصل بالمذهب ، كان من أهدافها هذا الذيوع أو الشيوع .

ومن هنا يرتبط في الحياة العملية ما بين المقالة وبين الذيوع . . وتأخذ المقالة ، مقالة الفرق والمذاهب ، تمد ما بينها وبين بعض صفات المقالة المعاصرة : الوصول إلى الناس أو الى أكثر من تستطيع أن تصل إليهم من الناس .

٥ ـ وإلى هنا ونحن مع عصور الازدهار ، في ساحة المقـــالة أو ما يشبه المقالة . . ولا تضيف متابعة الطريق الى بداية عصر النهضة شيئاً جديداً على هذا . . ولعل اللفظة تبدو أقل انتشاراً ، ولكن مدلولها لا يخرج عن هذه الأشكال التي أشرت إليها ، دع عنك ما كان أصاب هذا المدلول من ضمور أثراً للضمور الثقافي في جملته .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٦ – ومع العصر الحديث تتلامح آفاق جديدة واسعة .. المطبعة ، هذا الكشف الرائع ، هي التي استنبتت هذه الآفاق ، والصحافة هي التي جلتها . وارتباط ما بين الطباعة والصحافة في الغرب ، وانتقال ذلك إلى الشرق هو الذي أعطى المقال مدلوله الجديد ، ووهبه صفاته الخاصة وحدوده المتميزة .

إن البدايات الأولى للصحافة في الوطن العربي بدايات نشأت في ظلال الحكومات ؛ « الوقائع المصرية » مثلا كانت جريدة رسمية تنشر ما يتصل بالحكومة ، « المبشر » الجزائرية ، كانت الجريدة التي أنشأتها فرنسا في الجزائر .. ومع ذلك فلم تقتصر الوقائع أو المبشر أو مثيلاتها على القرارات والقوانين ، وإنما جاوزتها إلى أن تنشر بعض المقالات عن العلم أو عن المدارس : « المبشر » ، وبعض القصائد « شوقي في الوقائع » . إن أشياء من ذلك نجدها في هذه الصحيفة أو تلك ، وكأن المقال العربي بالمعنى المحدث لهذا اللفظ ، كان يبدأ طريقة على صفحات هذه الصحافة الرسمية ليجد مكانه بعد ذلك في الصحافة الحرة .

إن ارتباط ما بين الصحافة والمقال يوشك أن يكون ارتباطاً كاملاً ، عضوياً .. الصحافة قادت إلى المقال ، والمقال هو أحد الجوانب الرئيسية من الصحافة .. إنه أبرز ما فيها في نطاق الرأي ، وفي نطاق الخبر أيضاً ... لأن الخبر التافه تذروه الرياح ، والخبر القيم هو الذي يُنْبِط المقال فيقوم عليه .

هل في وسعنا أن نقول إن المقال الأدبي قد ولد ولادة جديدة مع نشأة الصحافة ، وإنه ذاع مع ذيوعها .. وهل نمضي مع هذا الترابط لنقول إنه كذلك تأثر بها وخضع لها وكان لها عليه سلطان كبير ؟..

إننا سنتبين ذلك بعد . . ولكننا نريد قبل أن نقف عند هذا الوافد القديم ـ الجديد . . إنه بعض هذه الأشياء التي جاءتنا من الغرب .. فما هو مفهوم المقال في الحياة الغربية ؟..

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

القسم الثاني ـــ مفهوم المقال

ا ـ في كثير من الإيجاز أحب أن أشير إلى أن لفظ مقال Essaie يدل في الأصل على « التجربة » .. إنه يومىء إلى هذه الممارسة لفكرة ما ، مخالطتها ومناقشتها وعرضها ... أو بتعبير آخر طرحها على الملأ ، **على الناس** ، في تجربة غايتها أن تصل هذه الفكرة إلى الاكتمال ، بما يتعاقب من حديث حولها أو تجديد لمعالجتها ، نقداً أو قبولاً أو إغناء أو تشذيباً .

إن المقال إذن في أبسط التعابير ، بعيداً عن حدود التعريف ، تعبير عن موقف ، عن فكرة مستوحاة من حدث ، مستخلصة منه أو معالجة له .. تجاوز ذات الكاتب إلى مجتمعه ، إلى جمهوره الذي يقرؤه ، ويراد أن يكون هذا الجمهور طرفاً في هذه الفكرة ، بثاً لها عنده ، أو مشاركة له فيها .

ب ـ إننا هنا في الحق أمام عنصرين : الموقف ـ الفكرة .. والقارىء ـ الجماعة أو الجمهور ... ولا نستطيع أن نتمثل مقالاً من غير فكرة يدعو إليها أو موقف يبتغيه ، كما لا نستطيع أن نتمثل مقالاً من غير جمهور أو جماعة يتجه إليها .

جـ ـ ولكن هذا المقال لا يمكن أن يساق أو أن يعرض خلواً من بعض شروط الأداء .. إنه لا بد له من لبوس أدبي يكتسيه .. لا بد فيه من الإثارة إلى جانب الفكرة ، ولا بد فيه من المتعة إلى جانب الرأي .. لا بد لهذا الرأي أو لهذه الفكرة من أن تجد مسالكها إلى الناس عن طريق القلب قدر ما تجد ذلك ، ولعلها فوق ما تجد ذلك ، عن طريق العقل ... إن الشكل الأدبي هو اللبوس المميز لهذا المقال وهو إن تخلى عنه تخلى عن سمة أساسية فيه وطبيعة رئيسية من طبائعه .

د ـ إن هذا اللبوس الأدبي يمكن أن يتخذ أشكالا مختلفة .. ليس من الحق في شيء أن يكون هذا اللبوس الكامل ... أن يكون فيه كل عناصر الأدب ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأن تغطي هذه العناصر كل جمل المقال ومقاطعه .. أن يكون كله أخيلة وصوراً مزوّقة ، وتراكيب وأساليب مُعْجِبة ، وعواطف وأحاسيس متقدة ، وأن يداخل ذلك كل كلمة منه وكل فقرة فيه .. قد يكون ذلك بعض مافعله كتاب المقال الأدبي ، أول الأمر ، متأثرين بثقافاتهم الأولى وبالإيحاء الذي خلفته الرسائل القديمة والمقامات .. وقد يكون ذلك ،أو بعضه ، هو الذي غلب على فترة من الفترات التي مر بها المقال الأدبي .. ولكن المؤكد أنه لكي يكتسب المقال هذه الصفة ، لكي يكون مقالا أدبياً ، فإنه يكفي فيه عنصر ما من هذه العناصر التي تكسب الأثر هذه الصفة الأدبية : التناول الجديد ، أو العرض المصقول ، أو العاطفة المشبوبة ، أو التهكم الخفي ، أو التخيل المثير .. بعض ذلك ، أو بعضٌ من كل ذلك ، مجزىء في أن يمنح المقال هذه الصفة .

هـ – وأخيراً هل نحن في حاجة إلى أن نقول **إن المقال الأدبي لا يعني إذن بحال المقالَ الذي يتحدث عن الأدب ، ولكنه يعني المقال الذي يقال في أي شأن من شؤون الحياة** ، في أي غرض من أغراضها ، في أي ميدان من ميادين السياسة أو الاجتماع أو الخلق أو الدين ، **مغموساً في الحوض الأدبي** ، أو في جانب منه ، متحلياً بشارة من شاراته أو شية من شياته .

إني أقصد قصداً في هذا الذي أقوله عن المقال الأدبي إلى تجاوز التعريف الضيق والحدود الصارمة .. لا لأن ذلك عسير فحسب ، بل لأن المقال الأدبي ، في الغرب حيث نشأ ، وفي البلاد العربية حيث غلب وذاع ؛ لا تضبطه تعاريف محددة .. إن أطرافاً من مفاهيمه تختلف بين الكتاب أنفسهم ، وبين الكتاب الفرنسيين والكتاب الإنجليز .. وتختلف مع بداية نشأته ومع التطور الذي آل إليه .. ويختلف مثل ذلك أو نحو ذلك في الحياة العربية .. وتاريخه هذا الطويل خلال هذين القرنين بكل هذه الظروف التي أحاطت به والتي لا حصر لها ،يجعل من الخير في مثل هذا البحث أن نقتصر على هيكله الأساسي الذي أشرنا إليه :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الموقف ـ الفكرة ، والقارىء ـ الجماعة ، واللبوس الأدبي الذي يكسو معالجة هذا الموقف أو طرح هـذه الفكرة على الجمهور ... إنه أدبي في صيغ أدائـه ، ولكنه سياسي أو اجتماعي أو ديني أو اقتصادي في مضمونه .

القسم الثالث ـــ عناصر الأصالة ومظاهر التجديد

هذا المقال الأدبي في شكله القديم الذي عرفناه به أو في شكله الجديد منذ بدأ على صفحات الصحافة الرسمية أول الأمر ثم جاوزها بعـد ذلك إلى الصحافة الحرّة ـ قطع رحلة طويلة .. إن مسيرته هذه جديرة بدراسة خاصة ، الحيز المفترض لهذا المقال لايتسع لها بحال .. ولكننا نستطيع ، تحقيقاً لغاية البحث ، في تتبع متأنٍ ونظرة فاحصة ، أن نلاحظ عناصر الأصالة فيه ، ومظـاهر التجديد التي طرأت عليه ، متجاوزين التفاصيل متغافلين عن ربط هذه التفاصيل بالخط التاريخي المفصل ، ملتفتين إلى الروح العامة التي تتجلى في هذه العناصر والمظاهر .

١ ـ خط التطور العريض : التنازع والتكامل بين الفكرة والأداء

إذا كان قد استقر عندنا أن المقال الأدبي يقوم على محورين أساسيين : الفكرة من نحو واللبوس الأدبي أو الصياغة من نحو آخر .. فإن التطور الذي حكم المقال الأدبي هو التطور الذي حكم هذين المحورين واتجـه بهما هنا وهناك .. إن محصلة الاتجاهات في هذين المحورين هي صورة المقال الأدبي في عناصر أصالته الأولى ومظاهر التطور الجديدة .

وفي وسعنا أن نقول دون أن نتهيب التعميم ، هذا المنزلق الخطر ، إنه كان هنالك دائماً في المقال الأدبي على طول هذا الخط التاريخي الطويل هذا التنازع بين الفكرة وبين اللبوس أو هذا التكامل بينهما .. آثارنا كلها في هذا النحو ، المحدثة والقديمة ، البعيدة الموغلة في البعد ، والحديثة النضرة الحداثة .. كلها تخضع لهذا التنازع أو هذا التكامل .. بعض منشئينا مشدود إلى الفكرة شداً يصرفهم عن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العناية باللبوس الأدبي .. وعند بعض المفكرين المنشئين أو المنشئين المفكرين ضعف في الأداء أو قصور عنه .. وبعض منشئينا مشدود إلى هذا اللبوس حريص عليه مغلب له على ما سواه .... وهناك أولئك الذين استوى لهم أن يمسكوا بالقيادين ، وأن يدفعوا بحصاتيْ المركبة ، في توازن ذكي ، إلى أبعد الحدود آفاقاً وتجديداً .. إن آثارنا كلها - ولعل آثار سوانا كذلك - مرتبطة على نحو من الارتباط ، بهذين : بالتنازع أو بالتكامل .. أولئك الذين وقفوا إلى هـذا التكامل كانوا من أعلام المقال الأدبي - بالمعنى الواسع له - على مدى تاريخنا الفكري .. وأولئك الذين خضعوا لهذا التنازع وقفوا في هذا الصف أو ذاك ، ولأمرٍ ما كانت أولى المشاكل النقدية التي أثارهـا البيان العربي قضية اللفظ والمعنى ، منذ كان النقد انطباعاً مبهماً أو جزئياً إلى أن كان مع الجاحظ وابن قتيبة عرضاً للمشكلة ، إلى أن اتخذت المشكلة بعد ذلك أبعادها كلها .. ولعله ، الأمر نفسه ، كانت بعض أوجه الخصومة الشكلية منذ البدء بين القرآن وبين الشعراء .. بين الموقف - الفكرة التي تطوّع الأداء ثم يسمو بها هذا الأداء إلى حد الإعجاز ، وبين الشعراء الذين يسقطون الفكرة ليتغنوا بالمواقف على نحو من الغنائية التي يخالطها هذا التضخيم والتمجيد والذاتية .

٢ - عناصر الأصالة

إذا صح لنا هـذا الخط العريض الذي يبدو للمتأمل في سير البيان العربي - والمقال الأدبي شكل من أشكال هذا البيان - فكراً وتسجيلاً ، عرضاً وأداءً ، موقفاً وتعبيراً ، وأغلب الظن أنه صحيح ، فإن عناصر الأصالة في المقال الأدبي - الأصالة بمعناها الاصطلاحي الجديد ومعناها اللغوي القديم - يمكن أن تتلخص بأنها تتناول الفكرة والأداء .

١ - الفكرة :

بمعنى أن تكون الفكرة ليست شطراً من المقال منضافاً اليه ، بل أن تكون صلبه ، وأن تكون هي منطلقه .. إننا نقول بعد أن نفكر ..

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ونكتب بلغتنا هذه بعد أن نكتب مرات هذه الكتابة الداخلية فيما بيننا وبين أنفسنا .. نكتب للناس بعد أن نكون استمعنا إلى هذا الذي نكتبه ، هديراً داخلياً متصلاً ، ونسمعه قبل أن نُسمعه للناس أو أن نحمله حملاً على آذانهم .

ولكن الفكرة يجب أن تكون مصاحبة بشيئين :

أ - أولهما : **الوضوح** : فلا تكون الفكرة فكرة إلا أن تكون واضحة في ذهن صاحبها .. ووضوحها هو الذي يفتح أمامها هذا الطريق ذا الشعبتين :

طريق وضوح التعبير عنها وسلامة هذا التعبير .

طريق وصولها إلى أذهان الآخرين .

إن فقدان الوضوح هو الذي أعطى نتاجنا الفكري في بعض الفترات هذه الألوان المعتمة ، وهذه الصورة التي تتداخل فيها الخطوط والظلال حتى لا تكاد تستبين .. إن ذلك هو الذي يسم قدراً صالحاً من نتاج العصر العباسي في نطاق الثقافة الجديدة التي خالطت الفكر العربي .. قد تكون جدة الثقافة هي السبب في ذلك ، ولكننا لانناقش ، هنا ، الأسباب قدر مانفكر في الآثار التي تتخلف عن غياب الوضوح .

ب - والآخر : **الإيمان بالفكرة** : فالفكرة لا تكون فكرة إلا حين تكون إيمانا بهـا أو في طريق الإيمان بها بكل مايحمله لفظ الإيمان من قناعة داخلية ، واطمئنان نفسي ، ووثوق عقلي .. والأفكار التي لاتكون موضع ايمان ، أو قصد إيمان عن طريق عرضها ومناقشتها ، لايجوز أن تطرح .. إنها حين ذاك تكون موضع تجارة .. وليس أقسى من تجارة الأفكار .. إنها الفتنة الكبرى التي تخرج بالناس عن محاور حياتهم إلى حياة من غير محاور .. إلى حياة تنسخ الحياة في خيوطها الأصيلة لتنسج بديلاً لها خيوطاً موهومة أو كاذبة .. إنها تُخرج الناس إلى مانصطلح عليه في مصطلحاتنا بالضلال .

٢ - **الأداء** :

الأفكار من غير أداء نقود مختزنة .. والأداء أو التواصل الفكري هو عصب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الحضارة ، سواء في ذلك حضارتنا أو الحضارات الاخرى التي كانت تجعل من طلب العلم فريضة ، ومن الاستجابة إلى هذا الطلب فريضة .. إننا مطالبون بهذا الأداء على كل صوره وأشكاله حين تتوفر لنا الفكرة ووضوحها ، والإيمان بها.

والحديث عن الاداء ينشعب في اتجاهين :

أ ـ أولهما : **صحة الأداء**

ذلك أن الأفكار تؤطرها اللغة وتصوغها .. واللغة جملة من الأدوات والقواعد.. وأي استخفاف بها أو تجاوز مقصود لمعاييرها أو انحراف عن خطوطها لاينال اللغة فحسب ، فليست اللغة وحدها شيئاً ـ وإنما ينال الفكرة التي نريد التعبير عنها والتبشير بها .. إنه زعم باطل أن نتصور أن أي أداء هو وسيلة مقبولة.. فلكل شيء طريقه في الحياة المادية والمعنوية على السواء ، في الفكرة التي نتقبلها ، في الجملة التي نسكبها ، في اللفظة التي ننطق بها ، في الصوت الذي يصل بيننا وبين الآخرين ـ أياً كان الاختلاف أو الاتفاق على حدود هذا الطريق تضييقاً أو توسعة .

وفي تاريخ الجماعات كلها توشك أن تكون صحة الأداء هي الأصل .. وإذا كانت الفكرة هي القطب النواة فإن صحة الأداء هي القطب الآخر .. وليس هنالك أفكار من غير أداء ، أريد من غير أداء صحيح .

ب ـ والآخر : **جمال الأداء**

وجمال الأداء هو الذي يهب المقال طعمه الأدبي .. إننا نأخذ الأشياء أو نؤخذ بها ولكننا نحب أن نؤخذ بها أو أن نأخذها في صورة جمالية .. إن الجمال هنا ليس عنصراً إضافياً ولا لصيقاً بالفكرة وأدائها ولكنه جزء من ذلك كله .. إنه الجمال في قبالة الحق الذي هو الفكرة ، وفي قبالة الهدف الذي هو الخير .. إن هذه الثلاثة قطعة نسيج واحد: اللحمة والسدى والأصباغ.. ولسنا نستطيع أن نتصور الألوان من غير خيوط ، وقطعة النسيج من غير لحمة وسدى..

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إن كل نتاج فكري ترك آثاراً في حياة الجماعة كان متصلاً بهذا الجمال نوع اتصال: براعة العرض جمال ، وروعة الابتكار أو الكشف جمال ، والنفاذ النافذ إلى الحقيقة جمال . . هذا إلى غير ذلك من العناصر الكثيرة التي تؤلف الجمال الأدبي.

٣ ـ الإيجاز :

وهناك في الثقافة العربية ، بالقياس إلى المقال الأدبي عنصر ثالث من عناصر الأصالة غفل عنه تاريخنا الطويل وعدت عليه العوادي حتى كاد ينسى . . ذلك هو الإيجاز . . وأنا أفرد الإشارة اليه على أنه جزء من الأداء لمكانته الأصيلة في تقاليدنا الأدبية .

ويبدو أن الإيجاز يغيب في مطاوي التطور الثقافي . . كأنما هذا الغنى الثقافي يستدعي مجانبة الإيجاز والاندفاع نحو التطويل . . وعند كتابنا ، وفي مقالاتنا ورسائلنا على مدى تاريخنا الأدبي ، كان الأمر يتراوح بين الإيجاز والتطويل أو الإطناب كما نسميه . . ولكننا حتى في العصور الأولى المزدهرة ، تجاوزنا ـ تحت تأثير عوامل كثيرة لا سبيل إلى أن نعددها هنا ـ آصل خصائصنا في التعبير ، وفي التعبير النثري بخاصة ، وفي التعبير النثري المكتوب على نحو أخص ، وذلك حين تجاوزنا الإيجاز إلى هذا الهذر الكثير الذي أصبح جزءاً من كياننا وحياتنا اليومية : كياننا النفسي و كياننا التعبيري .

إن سمة من السمات الأساسية في الحياة العربية الأولى هي الإيجـــاز . . و كأنما كان هـذا الإيجاز هو الذي غلّب عندنا، في بداية الحركة الإسلامية ، جانب العمل على جانب القول . . كانت تكفي عندنا الجملة الموجزة والتعبير المركز . . ورسالة عمر في القضاء جملة من القوانين ، وخطب الخلفاء الأوائل برنامج عمل . . ورسائلهم إلى القواد والولادة والعمال صورة لهذا الإيجـاز الذي تكتمل فيه الفكرة والأداء وضوحاً وجمالاً وبساطة . . ولأمر ما بدأ التطويل مع عبد الحميد في نهاية العصر الأموي وبدايات الاشتباك بالحضارات الأخرى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فقيل عنه إنه أول من طول الرسائل . . ولأمر ما أراد الجاحظ الإمتاع والجمال فأراد الذين جاؤوا بعده التطويل والهذر من غير جمال ولا إمتاع .

إني أوشك أن أجمع بين الإيجاز وبين الخصيصة الأصيلة في المقال الأدبي .

٣ - مظاهر التجديد

وإذا كانت هذه هي عناصر الأصالة في المقال الأدبي، فما هي إذن العوامل الطارئة عليه سواء أسمينا ذلك عوامل تجديد أو عوامل تبديد ؟

في الحق ان المقال الأدبي حقق منذ النهضة قفزة طيبة فوق عصور الانحطاط . . كان فكر ابن خلدون وأسلوبه المطلق في عصور ما بعد بغداد هما المنارة التي انتشلت هذا المقال الأدبي من وهدته ، على حبالها تعلق ليجاوز ذاته وعصره ، وليلتحم بالعصور المزدهرة السابقة . . واستطاع المقال في الصحافة المصرية وبالتالي في الصحافة العربية أن يوفر القيمتين : الفكرة واللبوس الأدبي على تفاوت في حظوظ أصحابه من هاتين القيمتين، وعلى تفاوت في تناسب مقاديرهما في المقال الواحد . . هناك الذين أغنوا جمالية المقال ، والذين أغنوا فكرته ، والذين أغنوا إبداعه الفني والفكري على السواء . . ولا سبيل هنا إلى الاستشهاد ولا إلى التعداد .

غير أن ذلك لم يستقم بعد ، أو لنقل إن هذا التطور لم يمض مباشرة إلى غايته التي كان يجب أن يمضي إليها . . إنه اتخذ بعض المظاهر الإيجابية وبعض المظاهر السلبية .

أولاً : المظاهر الايجابية

تتبدى المظاهر الإيجابية في :

١ - طواعية اللغة :

فقد اتسعت اللغة للكثير الجديد في نطاق الفكر النظري والتطبيقات العملية ، وطوعتها المقالة الجديدة لا في المفردات فحسب بل في التراكيب وصور الأداء . . لقد قدم النثر في المقال الأدبي ، للغة العربية في هذه الفترة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ساحات خصبة ، واستنبت فيه براعم وورودا ذات عرف ونباتات ذات نفع .. إنه فجر فيه كلمات وتعابير وأساليب ، وأطلقه في الآفاق التي رادها ،في الهواء وفي الفضاء ، على مجاهل الأرض وفي الكواكب . . إننا مدينون لهذا المقال الأدبي في الصحيفة اليومية أو في المجلة الأسبوعية أو الشهرية ، في وصل جماهير الناس بالحضارة ومعطيات العصر : آرائه وأفكاره وأدواته وآلاته ، وتشوقه وتطلعاته . . بل لعله ليس من المبالغة أن يقول الإنسان إنه لا شيء يربطنا بالحضارة إلا هذا المقال الأدبي ، ما دمنا لا ننتجها ولا نشارك في إنتاجها ،ولا نعرف منها إلا جانبها الاستهلاكي . . إن تطلعنا لها ومواكبتنا النظرية ،مدينة له ، مدينة لهذا المقال الأدبي الذي استطاع أن يكون ـ عن طريق تطويع اللغة من جهة والاستفادة من خصائصها التعبيرية والاشتقاقية وروحها الغني العتيد وأصالتها الأصيلة ـ هو الخيط الذي يربط الجمهور العربي بالحياة المعاصرة ،بانتظار أن يكون هذا الربط عن طريق المشاركة والممارسة .

٢ ـ يسر الأسلوب وتبسيطه :

فقد غلب على الأساليب التبسيط واليسر . . بعض ذلك عائد إلى طبيعة الأبحاث ، وبعضه عائد إلى طبيعة الكتاب ، وأكثره عائد على كل حال ، إلى هذا الارتباط بين المقال والجمهور . . فلم يعد المقال رسالة للخاصة ، بحكم هذا التطور الاجتماعي والنزعات الحرة ، ولكنه أضحى كلاماً يوجه إلى جماهير الناس ، يوجه في الجريدة اليومية والمجلة الأسبوعية وفي المجلة الشهرية .. ويكتب ليذاع على كل موجة ويدخل كل سمع .. وإذن فلا بد له من أن يلجأ إلى اليسر ، وأن يكون اليسر طابعه ، وإلى البساطة وأن يكون التبسط عماده . .ولقد أكسب ذلك المقالَ الأدبي خصائص جديدة عند عديد من الكتاب .

والغريب أن يكون أكثر ذلك عند الذين يعنون بالجانب العلمي .. على حين يغيب كثير من هذا اليسر والبساطة عند الذين يعنون بالجانب النظري ..

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

و كأن الوضوح الذهني عند (العلميين) قاد إلى اليسر ، و كأن الغموض الذهني عند (النظريين) قاد إلى شيء من التعقيد والغموض .

٣ ـ الاقلاع ، دون ردّة ، عن الزخرف اللفظي

فقد كان هناك بقايا من هذه الزخارف اللفظية قبل الحرب العالمية الثانية . . ولكن أساليب مابعد الحرب قضت على ذلك فيما يشبه أن يكون قضاء نهائياً فلم يعد في المقال الأدبي منه إلا بقايا رشيقة على أقلام متميزة ، أو بقايا كابية على أقلام ضعيفة ، ولكنها بقايا على كل حال .

ثانياً : المظاهر السلبية

إن هذه المظاهر الإيجابية لاتستقيم دائماً . . . وإذا كنا نتحدث عن طواعية اللغة ويسر الأسلوب وغياب الزخارف ، فإنه لابد لنا من أن نرى الوجه الآخر لهذا الذي نسميه المقال الأدبي . . لابد لنا أن نلاحظ أن التطور ، بعامة ، في الوطن العربي لم يمض ، في كل ميدان ، الى غايته . . إن كل شيء في هذا التطور ينكسر أو يتقطع أو يتخاذل ، يمتد في نحو ويقصر في نحو آخر ، وهو لذلك لم يستطع أن يعطي ثمرة صحيحة لا في الميادين السياسية ولا في الميادين الاجتماعية ولا في الميادين الفكرية . . ولعل مثل هذا التطور في المقال الأدبي من الأمثلة الحية على فقدان التوازن والتكامل في هذا التطور . . إن المظاهر السلبية شديدة الوضوح ، وهي تتمثل في هذا التعثر في الفكر ، أو هذا التعثر في الأداء ، أو هذا التعثر فيهما ، ونوشك أن نغادر كثيراً من مظاهر الأصالة التي أشرت إليها عند عدد من الكتاب في عديد ضخم مما نقرأ من المقال الأدبي دون أن نظفر دائماً بمظاهر التطور الإيجابية . ولا بد من أن أوضح ذلك في النقاط التالية :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أ ـ في الفكر

من المؤكد أن هنالك ثروة فكرية متدفقة على الذهن العربي تريد أن تغنيه أحيانا وتريد أن تغزوه أحيانا أخرى ـ وتلك قضية أخرى وإن لم تكن منفصلة وإن للحديث عنها لمجالاً آخر ـ .. ولكن من المؤكد أن هذا الدفق الفكري لم يرافقه هذان العنصران اللذان لايكون الفكر فكراً إلا بهما ، عنيت الوضوح والإيمان . إن جدة هذه الأفكار من ناحية ومواطنها التي نشأت فيها بعيداً عن مواطن الحياة العربية ، ذلك كله حمّلها قدراً من الغموض لم يستطع كثرة من أصحاب المقال الأدبي أن يغادروه أو أن ينجوا منه ، فإذا هناك هذا التعقيد فيما كتب ـ وبخاصة بعد الحرب العالمية الثانية ـ .. وإذا هناك ـ أثراً لعدم الإيمان بالأفكار ، واستثمار القادرين المتسلطين للذين يستطيعون صوغ الأفكار دون إيمان بها ـ إذا هناك هذه التجارة الفكرية الخاسرة التي تستخدم كل ما في التجارة من أضواء وإغراء ، ومن استثمار واستغلال .

ب ـ في الأداء

وأما في الأداء فإن سلسلة من الأسباب التي تبدأ بفشل برامج التعليم أحيانا ، وتنتهي بمشاعر الرفض للحدود والقواعد ، وأشياء أخرى كثيرة بين ذلك ، جنبت الأداء صحته وشوّهت أحياناً جماله ، أو أضفت على هذا الجمال أنواعاً من الغموض ومن التعقيد جعله أقرب إلى أن يكون إحساساً به غير مكتمل ، منه إلى أن يكون تذوقاً كاملاً له ، وتأثراً به واحتمالاً للعدوى الفنية منه .

جـ ـ في الايجاز

وأما الإيجاز ـ وأنا ، على أنه أسلوب من أساليب الأداء ، أفرده للتأكيد عليه ـ فقد أضحى عدواً لكثير من ألوان المقال الأدبي ، باستثناء هذا البرعم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الصغير الذي هو شكل جديد للمقال الأدبي: الخاطرة، الذي نصادفه في هذه الزاوية أو تلك من هذه الصحيفة أو هاتيك .. وأضحى التكثر والتطويل، من غير داع أو ضرورة أو مسوغ، سمة .. تلاحظ في عديد من المجلات في بعض الأقطار .. إنه تطويل مقصود أحيانا كأنه إطالة للشباك، أو تطويل يأتي نتيجة للعجز عن الوضوح، أو محاولة لإثبات الذات .

ثالثاً – عوامل وراء هذا التطور

وهكذا يبدو واضحاً أن هذا التطور الذي لا تتوازن خطاه، والذي يتراءى نكسة مرة وقفزة مرة .. ردة حيناً وتطلعاً حيناً، لابد فيه من بعض الضبط .. ومحاولة الضبط التي نهدف إليها تضطرنا إلى معرفة العوامل وراء هذا التطور في وجهيه الإيجابي والسلبي .

إن معرفة هذه العوامل جديرة ببحث مستقل، وكان من الممكن أن نتجاوز الوقفة عندها لولا أننا نريد من هذا البحث، ومن مثله، أن يخرج عن حدود الوصف الى حدود التنهيج او الى حدود الدلالة حتى يعطي ثمرته .. ولذلك سأكتفي هنا في الحديث عنها بما يشبه أن يكون تعداداً لها .

١ – الترجمة :

الترجمة أضخم مشاكل الثقافة المعاصرة، وأبرز العوامل وراء هذا التطور .. إنها – لهذا الظمأ الفكري الذي يستبد بأجيالنا، ولهذا الخصب الثقافي الذي تشارك فيه المجموعة الانسانية كلها – مشكلة الفكر العربي الأولى .

إنها – من حيث هي أفكار تلقى وأساليب تمارس، وقضايا تطرح – تفرض وجودها على كل مثقف .. ولو كان العرب الذين يقودون الحياة العربية على اهتمام بما وراء الأفق القريب، لو كانوا من ذوي النفس الطويل، لكانوا أولوا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الترجمة شيئاً أكثر من عنايتهم بالعديد من المظاهر الفارغة .. إنها نافذتهم على الحضارة إذا نظرنا الى المستقبل ، وإرادة الحفاظ على أصالتهم اللغوية إذا نظرنا الى الماضي ، وطريق سلامتهم الفكرية إذا أرادوا المشاركة من غير تبعية ، والاسهام من غير ذوبان .. وهي اقتصاد رائع لطاقاتهم الذهنية ، وتحويل لها نحو الابداع إذا نظرنا الى صلتها بموضوع دراسة اللغات الأجنبية في المدارس .. إني أكتفي هنا بأن اشير الى التجربة الصينية للذين يريدون فعلاً أن يفكروا في أوطانهم ، وأن يعملوا لها عملاً مفيداً .

والذي يحز في النفس أن الترجمة أضحت باباً لشرين كبيرين : الدعاية والتجارة .. وماذا يبقى من الجماعة حين يستبد بها ، من حيث لا تشعر ، أفكار يراد أن تتلبسها ، وتجارة فكرية لا يخشى كسادها ؟!.

٣ ـ الصحافة ، الجرائد والمجلات :

الصحافة هي الوعاء المادي للمقال الأدبي .. كل حديث عن تأثير هذا المقال وتطوره متصل بالحديث عن الصحافة وتطورها .. إنها إذن الوعاء والغذاء .. ولقد كان لها فضل أي فضل .. إن سلطانها عظيم ولذلك فان الاهتمام بها يجب أن يكون فوق سلطانها .. ولا بد لها من قدر متوازن غير مكتوب ، من الحرية ومن الرقابة .. حرية ورقابة ذاتيتين .. أما كيف يكون هذا التوازن فتلك مسألة اخرى ، ولكن أبرز ملامح وجودها أنها يجب أن لا تخرج عن شرائط الأصالة التي تحدثت عنها حتى لا يتبدد أثرها وحتى لا يذهب شرُّها بخيرها .

٣ ـ الاذاعة والتلفزة :

وجهان آخران للصحافة .. والحديث عنها هو الحديث عنها .

٤ ـ الخطب السياسية :

شهد الوطن العربي في الفترات الأخيرة تطوراً في الخطبة السياسية .. كانت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هـذه الخطبة من قبلُ عنـــد كثرة من رجال السياسة الذين يمارسون الخطابة – تخضع لكثير من العناية حتى تكتسب سلامتها اللغوية من نحو وجمالها الفني من نحو آخر .. وكان العديد الأكبر من الذين يمارسون الخطابة السياسية على حظ كبير من الثقافة اللغوية والأدبية والفكرية .

غير أنه نشأ بعد ذلك في الأمة العربية رجال من الطراز الأول في الحياة السياسية ... آثروا تحت تأثير أنبل الدوافع وأصدق المشاعر وأصح الاتجاه أن يتحدثوا إلى الناس وأن يخطبوهم حيناً بعد حين باللغة اليومية .. إن هذه الخطب السياسية التي قُدّر لها ، بحكم حصافة أصحابها وذكاء لبهم وعظيم تأثيرهم وسمو مكانتهم ، قدر كبير من الانتشار أباحت للعامية أن تنزل منزلاً جديداً ما كان لها أن تنزله من قبل ، بل لقد سجلت بعض هذه الخطب في الصحف على هـذا النحو ، ونفذت الى الناس ، عقولهم وقلوبهم ، على هذا النحو ... وهو اتجاه قد يكون له ما يغفره في نطاق الأهداف الكبرى والظروف الآنية ، وعلى لسان زعيم موهوب وقائد فذ .. ولكن ليس له ما يغفره إن هو أضحى سنة مبتدعة متبعة .. لأن أثره بعد ذلك على المقال الأدبي ، استشهاداً به او ببعض فقراته واحتذاءاً له في بعض المرات وتيسيراً للطريق أمام العامية – لا يغتفر .

وهـذا دون أن ننسى أن هذه الخطب السياسية كان لها من نحو آخر أثر ضخم في تفتيح الأفكار ، وإشاعة بعض المفاهيم وإذاعة بعض التراكيب وتمهيد السبيل أمام بعض صيغ الأداء في مجال الفكر السياسي والاجتماعي مما ساعدها على أن تدخل في الاساليب اليومية وأن تضحي جزءاً من الذخيرة الانشائية عند بعض رجال الصحافة والتعليم .. ولذلك ، لا شك ، أثره في لغة المقال الادبي ، قدر ما كان من أثره في الفكر الشائع في هذا المقال .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٥ - نزعات أخرى متماثلة في نطاق لغة المقال الادبي :

هذا الى نزعات اخرى تماثل فيما بينها وتنطلق هنا وهناك ، تتصل كلها بلغة المقال الادبي .. إن هناك كثيرين اتجهوا إلى العامية يريدون الاستمداد منها . أما أولئك الذين أحيوا الفصاح منها ، ألفاظاً وتعابير فإن عملهم كان ضوءاً منيراً على طريق الحياة اللغوية .. وأما الذين دعوا إلى استعمالها ، استعمالاً جزئياً او كلياً ، فإن عملهم كان لا بد له أن يترك أثره على أقلام الكتاب وفي نتاجهم ..

ولعل أبرز ذلك أن يستقر في الذهن شيء من هذا التمجيد للعامية وادعاء قدرتها ، أو قدرة بعض ألفاظها ، وهو شيء لا نشك فيه في الأصل ، ولكننا نخشى أن يساء استعماله على نحو من الأنحاء ، بحيث يؤدي ، في لحظة من لحظات الضعف في حياة الجماعة ، إلى أن يسلك بها مسالك تقطع ما بينها وتودي بها ، وحداتٍ صغيرة ، في مهاوي التيه ومضلات الفناء .

هذا دون أن أشير إلى هذه الدعوة التي يزدوج فيها الخطر : العامية واستعمال الحرف اللاتيني ، إن خطر ذلك قدر خطه .. وفوق ما يستطيع المحذرون أن يحذروا .

رابعاً : أحداث وانعكاسات

تلك جملة من العوامل التي وقفت وراء هذا التطور وساعدت عليه .

وترتبط هذه العوامل بسلسلة من الأحداث تنتج عنها جملة من الانعكاسات :

أ - أما عن الاحداث فمن المؤكد أن الحرب العالمية الثانية كان لها في ذلك أثر كبير .. كان هدف الإعلام الغربي أن يقرب إلى أذهان الناس أشياء وأن يبعدهم عن أشياء .. أن يضعهم في صورة وأن يبعد عنهم صورة أخرى ، وكانت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اللغة بعض سبيله إلى ذلك ، اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة .. وكانت أكداس النشرات والكتب التي تصدر عن هذه الدار أو تلك ، وسلاسل البرامج التي تنبعث من هذا البلد أو ذاك تصل إلى كل عين ، وتدخل كل أذن ، وكانت من الكثرة بحيث يجدها الإنسان حيث سار .. عند الطبيب إذا انتظر الطبيب ، وفي النادي إذا دخل النادي ، وفي الحوانيت المترفة والفقيرة و .. كان يجدها الرجل والطفل والمرأة على السواء . وما أكثر ما يصادفها في دكان حلاق فيتسلى بها ينتظر دوره .. أو في دكان بقال يشتري من عنده ما يشتري ، فاذا البقال يغلف ذلك بهذه النشرات .

وتجاوز الأمر ذلك إلى صحف ومجلات راقية كانت تصدر حين كان الورق مادة عزيزة نادرة، وتوزع على أوسع نطاق .. على حين كانت المجلات الأصيلة تحتجب أو تضمر ، تضؤل أو تختفي .. وحين يقارن المرء بين ما كان آنذاك من ضمور «الرسالة» و«الثقافة» ،وبين انتشار مجلات أخرى أقرب إلى الدعاية ،فإنه يدرك من ذلك ما قد يخفى عليه .. لقد كانت « المختار » مثلا واحدة من أبرز ما ظهر في هذه الفترة وانتشر وترك أثره أقوى الأثر في بعض المفاهيم بل في تجديد النظرة إلى المقال الأدبي وبنائه هذا البناء ، المغاير على حرصٍ على سلامة اللغة شديد وعناية بالأداء واضحة .

ب - وقد كان هنالك أحداث أخرى نكتفي بالاشارة اليها .. ان ثورات الشعوب واستقلالها على طول الوطن العربي وقيام سلسلة من الانظمة ـ كل ذلك أدى إلى خلق نوع من الفكر السياسي الجديد وهو فكر كان لا بد له كذلك من أن يسلك إلى الأداء مسالك فيها بعض الجدة ، وأن تكون له لغته وتعابيره وطرائقه وأن يكون له نفاذه إلى الجماهير وأثره في هذه الجماهير .

جـ - ووراء الفكر السياسي كان هنالك هذا الفكر الاجتماعي الجديد الذي اقترن به والذي غطى الحياة العربية كلها أو أكثرها .. إن هذا الفكر كان له

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كذلك آفاقه ومصطلحاته ، وقضاياه التي طرحها ومعالجاته التي قام بها وكان له من كل ذلك فيض من المقالات التي لاشك في أن لها لغتها وتراكيبها وممارساتها.

د – واقتران مابين الفكر السياسي والاجتماعي يدعونا أن نقف عند الآفاق الثقافية الجديدة التي أتيحت للوطن العربي .. كان هذا الوطن يعرف من الثقافة الغربية أكثر مايعرف الفرنسية والإنجليزية .. وقلائل أولئك الذين كانوا على صلة بالثقافة الالمانية أو الروسية أو الأميركية .. ولكن الحرب أتاحت له أن يعرف أطرافاً من الفكر الأميركي عن طريق بعض المجلات وفي سلاسل من الكتب التي صدرت بعد .. ثم أتاحت له كذلك نتائج هذه الحرب أن يتصل بالثقافة الروسية : أدبها أولاً عن طريق مجموعات أدبية قامت بنشرها بعض دور النشر على أسوأ صورة ترجمةً وطباعة ، ثم فكرها المذهبي وعقيدتها الاشتراكية وعملها السياسي ودعوتها العالمية .. وكان مؤتمر باندونغ منعطفاخطيراً في ذلك ، في صلات مابين الوطن العربي والشعوب السوفيتية .. ثم اتسعت الصلات وامتدت على نحو ما نرى .

هل من شك في أن ذلك كله كان له في المقال الأدبي في مادته بخاصة وفي تنويع هذه المادة وإغنائها ، وفي طريق معالجاته وأساليب أدائه ، وفيما خالطه من رأي ومازجه من اتجاه ، أثرٌ كبير ؟

هـ – وإذا نحن وقفنا عند الحرب العالمية الثانية وعندما كان بعدها من الفكر السياسي والفكر الاجتماعي ، من الفكر الشرقي ومن الفكر الغربي ، فان ذلك لايعفينا من أن نذكر ما كان قبلها في بداية الحركة الفكرية ، في مصر بخاصة ، مصر التي كانت تمثل بؤرة النشاط الثقافي ومركز الإشعاع الفكري .. كانت الحركة الفكرية تتفتح آنذاك في شيء من البطء لأن تفاعلها مع الحياة الغربية أو الشرقية كان تفاعلاً ضعيفاً ، ولكنه كان تفتحاً ذاتياً لا إكراه فيه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وإن ذلك لايعفينا أيضاً من أن نشير إلى أحداث ما بعـــد الحرب وهذه النكبات التي تركزت في فلسطين . . إن قضية فلسطين وحدهـا خلقت نوعاً من المقال الأدبي ، وخلّفت فيه ، في مادته ونبرته وروحه ، شيئاً لم يكن من قبل .

هذا عن الأحداث ،أما عن منعكساتها فمن واجب الباحث أن يرصد حركة الصحافة العربية ، جرائـد ومجلات أسبوعية وشهرية ، وحركة النشر في الكتب والسلاسل والمجاميع . لقد أشرت على سبيل المثال إلى المختار وإلى مجموعات الأدب الروسي . . ولكن لابد من حركة متابعة دقيقة . . إن جريدة المصري مثلاً بعد الأهرام ومعها ، وجريدة أخبار اليوم مع المصري وبعدها ، كانت ، في جملتها ، دعوة صارخة إلى جديد في المقال الأدبي ، جديد في أدائه وجديـد في لغته . . والذين عاصروا هذه الفترة يدركون بوضوح أي أثر خلفته هذه الحركة الصحفية في الأساليب وجددته فيها . . وإذا كان هنالك هذا الخط المتصل المتطور في المقال الأدبي ، فإن هنالك هذا الخط المتطور الذي يسبقه أو يدعمه ، متقدماً عليه أو موازيا له ، في النثر الصحفي .

وفي الصحافة ، في أنهرها وحقولها ،يجب أن نلتمس كثيراً من العوامل التي كانت وراء تطور المقال الأدبي في الجوانب التي أشرت إليها .

إن المقتطف والهلال والفتح والزهراء ، ثم الرسالة والثقافة والمجلة والمجلة الجديدة والطليعة والأديب والآداب ، وغير ذلك مما لم أذكر . . . إن هـذه الصحافة الأدبية التي تمثل المقال الأدبي تتواكب في تطورهـا وتلتحم بالأهرام والمؤيد والمقطم والمصري والزمان والمسلمون واخبار اليوم والمساء والجمهورية . . وفي ادارات الصحف نشأت أقلام ونضجت شخصيات وتبدت تأثيرات لاحصر لها . . وهي ، كلها ، جديرة بدراسات متأنية مستقلة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الخاتمـــة

وبعد، فتلك خطوط من مظاهر الأصالة وظواهر التجديد في المقال الأدبي . . إنها كلها تضعنا أمام القضية الكبرى في هذا المقال : كيف نستطيع أن نوفر له هاتين القيمتين الكبريين ، قيمة السلامة اللغوية وقيمة الجمال الفني .

أ ـ إن أي اتجاه في التطور يجب له أن يراعي هاتين . . . وليس في وسعنا ، أيّاً كانت الدعوات والتأثيرات والتجارب الأخرى، أن نتخلى عن السلامة اللغوية .

إن اللغة ، لغتنا العربية المشتركة هـذه هي مادة وجودنا وهي التي تختزن جوهر هذا الوجود وتفصح عنه وتتيح له التعبير عن ذاته . . وكل انحراف عن هذه اللغة او ابتعاد عنها ، بالحركة او الحرف او الكلمة، هو انحراف عن خط الحياة السليمة . . وليس لنـا كبير عمل ولا طويل يد في هـــذا الشأن إلا في جانبين :

أما احدهما فذلك هو أمر التبسيط والتيسير في الأدوات . . على أن تبقى اللغة هي اللغة في أصولها وروحها، وخط التواصل الذي يربط بين ماضيها وحاضرها.

وأما الآخر فذلك هو امر التعريب في المصطلحات : التعجيل بها ، والعمل على إقرارها والأخذ بها في كل مدارج التعليم .

إننا لسنا مع اللغة في خيار . . إنها اختيار متأصل . بدأ مع وجودنا القديم إن كان هناك وجود قديم وجديد . . بل إنها نوع من الجبرية التي لامعدى عنها لأننا نعيش في لغتنا كما نعيش في جلودنا ، وتسري فينا لغتنا كما تسري دماؤنا . . والانحراف عن اللغـة يشبه أن يكون انسلاخاً من الجلود، ومن الذي يستطيع ذلك . . والعبث بهذه اللغة نوع من تسميم الدم ، وليس من يرضاه .

من أجل ذلك يجب أن ينقطع ، انقطاعاً كاملاً وإلى الابد ، كل صوت يريد أن يغالب هذه اللغـة على وجودها أو يخرج بها عن طريقها ، عن حروفها وحركاتها ، عن أصولها وقواعدها . . إن تلك لا شـك هجمة ضارية من هجمات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الأعداء ، فطن لذلك أصحابها أو لم يفطنوا . . وحسبنا هجمات الأعداء التي نوزح تحتها .

ب والقيمة الأخرى قيمة الجمال الفني لا بد لها من أن تكسو المقال في نوع من الصقل الجمالي لنفوسنا وأرواحنا . . غير أن مجالات هذا الصقل لا تخضع لحدود . . إلا حدود الذوق والموضوعية والعقلانية . . إننا نقبل أي تطور فيها تسيغه الأصول . . بل إننا نسعى وراء هذا التطور ونتمنى أن ينبثق المقال الأدبي عن رؤى جمالية جديدة ، وأن يسبح في فضاء فني جديد . . ولكننا نحترس في أن يرتبط هذا الجمال بغير القيم الكبرى الخالدة في الحياة الانسانية أو أن يأتي متنافياً مع القيم الأصيلة في حياتنا الثقافية .

ج ــ ولا شك أن وراء هاتين القيمتين وحولهما ومعهما الفكر الذي يحملهما . . إن القيمة الفكرية للمقال الادبي هي منطلقه ، وهي كذلك استمرار حياته وإلا لم يكن مع الرحى طحن . . وذلك يعني أننا في حاجة إلى هذا الفكر : أن ننفتح له ، بل وأن نتفتح عليه ــ أردت أن يكون ذلك في عمل إرادي ــ من غير إكراه على لون معين منه او اتجاه محدد فيه . .

إننا في الوطن العربي نملك قدرة فائقة بحكم إرثنا الحضاري على أن ندرك الأشياء ، وأن نتفاعل معها ، وأن نغنى بها وأن نغنيها . . فلنترك لهذا التفاعل أن يتم حراً طليقاً ،لأن كل تدخل فيه هو حد من قدراتنا الموروثة والمكتسبة ، وهو كبت لتطلعاتنا الجادة ، وقتل لكل ماخلفت فينا القرون من استعداد وما يخلفه التحدي الحاضر من قدرات .

إن فرق مابين الشعوب العربية وبين عديد من الشعوب الأخرى النامية إنما هو إرثها الروحي والفكري الذي لا يضطرها أن تبدأ الطريق من ملامسة السطح . . وإنما هي قادرة على أن تتجاوزه قفزاً حتى تصل إلى مقدمة الركب إن هي حيل بينها وبين التبديد والانحراف والتضليل .

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

إن وجود الفكر ،الوجود الصحيح للفكر الصحيح، في المقال الأدبي يطرح قضايا خطيرة في الثقافة والمجتمع : قضايا الحرية ، والفكر العالمي ، والترجمة .. وليس إلى تجاوزها من سبيل .

وإذا استطاع المقال الأدبي أن يضمن الفكرة التي يقوم عليها ، والسلامة التي يقوم بها ، والجمال الذي يتحلى به ، فذلك يعني استواء الطريق إلى أن نضع بين يدي الانسان العربي الغذاء الذي يجمع بين الصحة والذوق ، بين النمو والجمال .

* * *

وددت لو أن هناك مجالاً لأتحدث عن نحو آخر .. هو وضع المقال بالقياس إلى وسائل التثقيف الأخرى في الثقافة العربية المعاصرة ، وبخاصة بالقياس إلى الكتاب .

لقد أعطيت المقال حقه ، ولكني لم أعطه مكانته .. إن قيمة المقال تبقى ، ويجب أن تبقى ، قيمة جزئية في دورتنا التثقيفية.. ولا بدّ من الكتاب أولاً ، ومن الكتاب آخراً .. ومن أن يكون المقال بينهما وسيطاً ـ يوجز ويثير ،ويدلّ ويشير.. يستبقي مايبقى من الكتاب القديم ،ويبشر بالكتاب الجديد ويدعو له .

إن طورنا الثقافي الذي نعانيه : طور الاقتباس واختطاف الأفكار أحيانا دون وعي ،وفقدان حركة ترجمة منظمة ،واضطراب نظم التعليم بين الازدواجية في اللغة أو الثنائية أو الوحدانية .. وانهيال المعارف الجديدة وتدفقها كما تنهال الثلوج كتلاً متسارعة ، أو كما تتدفق الينابيع أنهراً هادرة ـ كل ذلك يجعل المقال ، الآن ، أداة أولى .. ولكنه لايجب أن يكون كذلك ، أو أن يبقى كذلك .

إن المقالات وبخاصة حين تكون غير محكمة ـ إنما تعطي جوانب من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الفكرة وزوايا من زواياها .. ولكنها لا تغطي ولا يمكن أن تغطي الموضوع من أطرافه .. ولهذا يحسن أن لا يعدو المقال طوره : وساطة وإثارة وتبشيراً .. وأن لا يكون البداية والنهاية .. لأن الكتاب في مجال الهدف البعيد : التثقيف، هو البداية والنهاية .

ترى كيف نستطيع أن نضبط هذه العلاقات بين المقال والكتاب حتى لا تكون كتبنا مقالات وأفكارنا جزئيات ، ومعرفتنا التقاطات ، وثقافتنا زوايا ضيقات متفرقات ؟!

* * *

هل في وسعنا أن نفعل في ذلك كله ، شيئاً ذا بال ؟..

من المؤكد أن الأمور في الوطن العربي لا تجري على سنن واضح ، وليست لها قيادة واحدة . تلك مشكلتنا الكبرى . ومع ذلك فإن أحداً لا يحول بيننا وبين أن نقول الكلمة الصحيحة .

إن المقال الأدبي ـ أيا كانت مادته ـ هو طريق رئيسية من طرائق التثقيف .. والتثقيف هو وسيلتنا إلى مواكبة الحضارة .. وأي جهد يبذل نحو أن يكون هذا المقال أصيلاً ومبدعاً في آن ، هو جهد محمود .

إن رؤانا بعيدة ولكنها لن تثقل أجفاننا كما لن تثقل الهموم كواهلنا .. ولا بد لنا من أن نتيح للحرف العربي أن تكون له مطلاته الواسعة ، السليمة ، الجميلة .. إن هذا الحرف يشبه أن يكون السيف الذي يثقله قرابه ولا بد له من أن يخرج من هذا القراب حراً طليقاً .. إن معركتنا في صميمها ، تبدأ بهذا الحرف وتدور حوله .. أترى كانت بداية بعض السور في القرآن الكريم بهذه الحروف تكريماً لها وبيانا لشأنها ؟!..

وصدق الله العظيم

شكري فيصل

أستاذ كرسي الأدب العربي في جامعة دمشق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مخطط البحث

مدخل

القسم الاول : المقال في التراث القديم
من الجاهلية الى العصر الحاضر

القسم الثاني : المفهوم الجديد للمقال

القسم الثالث : عناصر الأصالة ومظاهر التجديد

١ – خط التطور العريض

٢ – عناصر الأصالة : ١ً) الفكرة (الوضوح – الايمان)
٢ً) الأداء (الصحة – الجمال)
٣ً) الإيجاز

٣ – مظاهر التجـــديد

أولاً – المظاهر الإيجابية :
١ – طواعية اللغة
٢ – يسر الأسلوب
٣ – الإقلاع عن الزخرف اللفظي

ثانيـاً – المظاهر السلبية :
أ – في الفكر
ب – في الأداء
جـ – في الإيجاز

ثالثـاً – عوامل وراء هذا التطور :
١ – الترجمة
– ٢ الصحافة
٣ – الإذاعة والتلفزة
٤ – الخطب السياسية
٥ – نزعات أخرى في لغة المقال

رابعاً – أحداث وانعكاسات

خاتمة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net